صور رجال الفكر في تركيا :

ضياء كوك آلب

ونظرته في القومية

بقلم عطا الله ترزى باشى :

هو ذلك المعروف بآرائه الاجتماعية الدقيقة واطلاعه الواسع في الفلسفة العالية — العالم التركى البحرى والمفكر الإسلامى القدير محمد ضياء الملقب بـ (كوك آلب)

وهو شاعر قوى الخيال عميق التصور رقيق الشعور ، وكاتب اجتماعى فياض العاطفة ، يسحر الإنسان برصانة أسلوبه وحصافة تفكيره وقوة تعبيره . له أبحاث قيمة فى جل نواحى النشاط العلمية والفكرية ، وأفكاره تنم عن فلسفة إسلامية راقية .

ولد بمدينة (دياربكر) سنة ١٨٧٥ م ونشأ فى بيت جل أهله علماء ، فكان والده السيد محمد توفيق — مدير التحريرات — عالماً جليلاً بث فى نفس ولده روح الأمل فى الحياة وثبت عزائمه للصمود فى مدارج العلم والأدب ، كما بذر فيه بذوراً صالحة من الفضائل حتى نبت الكثير منها فكان كوك آلب فى عنفوان شبابه ومرآة صادقة تنعكس عليها المثل العليا التى اقتبس نورها من أبيه .

دخل كوك آلب المدرسة الرشدية العسكرية وبدأ يتعلم اللغة العربية واللغة الفارسية على عمه الذى كان حجة فى اللغات الشرقية. وأحب الفرنسية فى صغره فاكتسب مبادئها حينذاك ، كما اتصل ببعض من يعرفون اللغة الكردية حتى أتقنها ، وسعى فى إجادة هذه اللغة ودراستها من شتى نواحيها دراسة عميقة وقيل أنه أراد أن يضع كتاباً فى قواعد هذه اللغة (نهاد سامى : تاريخ الأدب التركى المصور ، ص ٣٥٧ ، سنة ١٩٢٨) مما حدا ببعض الكتاب إلى الاعتقاد الخاطىء فى عنصرية هذا المصلح التركى . ومن بين هؤلاء الأستاذ محمد لطفى جمعة إذ يقول : وقد روى لى أحد الثقات . . أن كوك آلب كان كردياً . . ألف كتباً فى النحو والصرف الكرديين ... » (حياة الشرق ، ص ٢٢٥) .

ودخل كوك آلب بعد ذلك المدرسة الإعدادية وتمكن فى أثناء دراسته هناك أن يتعمق فى الفلسفة الإسلامية. وبالأخص فى علوم التصوف ..

وحدث أن مات والده وهو لم يكمل دراسته بعد . فطلب من عمه أن يساعده فى الذهاب إلى الأستانة لإتمام دراسته هناك ؛ بيد أن عمه لم يرض عن سفره ورغب فى بقائه معه فيزوجه ابنته. فأثرت هذه الواقعة — ووقائع أخرى جد مؤلمة — فى حياة كوك آلب حتى خطر على باله أن ينتحر . وفى ذات يوم أطلق على نفسه عياراً نارياً من مسدس أصاب رأسه دون أن يقضى على حياته . ويقول الأستاذ (نهاد سامى) فى كتابه السالف الذكر أن تلك الرصاصة أثرت فى حياة هذا المفكر تأثيراً عكسيا لتشاؤمه الشديد بوخامة مستقبله واشمئزازه القديم من الظروف العصبية والأحوال السيئة المحيطة به ، فأزالت جميع اضطراباته الروحية التى كان يشكو منها وخلقت له جواً مفعماً بروح التفاؤل بحيث ينبغى أن نقول إن لحظة تلك الإصابة تعد بداية تحول فى حياته ، فبدأت له حياة جديدة يسمو فيها كوك آلب إلى العلياء فى سلم التقدم الفكرى يوماً بعد يوم .

وسافر بعد ذلك إلى الأستانة والتحق بمدرسة البيطرة (الداخلية — حيث تدفع الحكومة فيها مصاريف الطلاب) . وشاءت الأقدار أن ينتسب — وهو فى الصف الرابع من هذه المدرسة — إلى الجمعيات السياسية ، فانضم إلى الجمعية السرية التى أسسها طلاب الكلية الطبية آنذاك . ولما علم أمره ألقى فى السجن تسعة أشهر نفى بعدها إلى بلدته الأصلية .

وظل هناك يدرس القرآن دراسة وافية ، ويوسع من أفق معلوماته فى العلوم الدينية ، وذلك بعد أن أحاط باللغة العربية علماً وألم بها من جميع أطرافها إلماماً كافياً حتى عد علما من أعلامها .

وعلى أثر الانقلاب العثمانى سنة ١٩٠٨ بدأ كوك آلب ينشر المقالات الفلسفية والاجتماعية الهامة فى مجلة « كنج قلم » مما لفت أنظار المفكرين فى مصره فنال استحسانهم .

وسافر بمناسبة الحروب البلقانية إلى استانبول مع هيئة الأعضاء المنتمين إلى الحزب الذى كان قد تأسس فى ذلك الوقت. وبدأ هناك ينشر المقالات العلمية والاجتماعية فى أمهات الصحف الاستانبولية حتى عُين مدرساً للفلسفة فى مدرسة دار الفنون (أنظر ابراهيم علاء الدين فى مشاهير الترك، مادة كوك الب، طبعة سنة ١٩٤٧):

وبعد الحرب العالمية الأولى نفاه الانكليز إلى جزيرة (مالطه). وبقى فيها أسيراً ثلاث سنين غادرها بعد ذلك إلى (ديار بكر) فأسس هناك مجلة (كوجوك مجموعة).

وأخيراً دعى إلى أنقرة وعين رئيساً للجنة الترجمة والنشر فى وزارة المعارف. وقد شغل هذه الوظيفة إلى أن وافته المنية سنة ١٩٢٤ م.

لقد جمع هذا المفكر العظيم بين الأدب والفلسفة فصدرت عنه أفكار أظهر فيها تمسكه الشديد بمبادىء الدين الاسلامى الحنيف إلى جانب اعتزازه القوى بأسس القومية التى هذبها وأحسن وضعها. فإنه كان قومياً غير متعصب، يدعو إلى القومية الإنسانية بكل معنى الكلمة. فلم يكن لينظر إلى غير قومه نظرة استخفاف أو استحقار، ولا ليمس كرامة قوم من الأقوام. ولم يكن كذلك يفاخر بأمجاد قومه مفاخرة الجاهلين المتعصبين، وإنما أراد أن يعظم محاسن قومه ويهذب عقول القوميين المتحمسين لما لا ينفع، ويصقل أذهانهم وينور أفكارهم؛ فبذل جهوداً جبارة فى تخطى العقبات التى تقف أمام المجتمع فى تفهم معنى القومية، وسعى كثيراً إلى إبعاد المساوىء المحيطة بعقلية القوى والمضعفة للناحية الخلقية له.

فنراه يلبس القومية ثوباً آخر غير الذى ألفنا حتى اليوم فيتخذ من القومية وسيلة يتذرع بها الانسان للوصول الى أرقى درجات الحياة الاجتماعية وتعرقب كل أمة أن تبلغ مثلها العليا التى رسمتها لها أفرادها فى ظل القومية وتحت راية الدين.

وقد نظم هذا الاديب قصائد رنانة، وعقد فصولا طويلة وبحوثاً كثيرة سلك فيها مسلك المسلم فى دينه والتركى فى لغته وأدبه. ومن تلك المنظومات «توحيد»، «الهى»، «اذان الترك» و «دعاء الجند وعقائده». الخ وهى تنم على مبادىء اسلامية وتركية مشتركة.

ويحدثنا الاستاذ نهاد سامى (فى كتابه تاريخ الادب التركى السالف الذكر) أن كوك آلب نظم قصة تسمى «يولوان ولى» قصد بها الى أن الشخص المتمسك بمبادىء دينه والمتشبع بفكرة حب القوم يكون قادراً على مسايرة أموره وتمشية أعماله ومصالحه الاجتماعية على خير ما يرام، اذ يكون ذا قوة كبيرة وصاحب قدرة خارقة يبدو فيها الاعجاز فى كل لحظة بأبهى مظاهره، ويتجلى فيها السحر والبيان بأبدع صورته

ولم يكن كوك آلب يوماً ليوقن بالقومية مالم تكن قائمة على أساس دينى قويم اذ أنه لايمكن فى الواقع تجريد القومية عن مبادىء الدين مطلقاً. فالقومى فى نظره هو من كان فى دينه مؤمناً واتخذ من لغة قومه وسيلة للتفاهم. فاليهود عنده مثلا، وان سكنوا فى تركيا سنين كثيرة، وتجنسوا بالجنسية التركية، لايجوز بوجه من الوجوه أن يعدوا أتراكا أو يعتبروا منتسبين الى القومية التركية ماداموا غير مؤمنين بما آمن به الأتراك (ويعنى به المبادىء الدينية) وانما هؤلاء وأمثالهم من غير المسلمين يطلق عليهم لفظة (وطنداش) بمعنى بنى الوطن.

ويبين لنا هذا المفكر الكبير فى كتابه (أسس القومية التركية) النظريات المختلفة لعلماء الاجتماع فى تحديد معنى القومية، فيناقشهم فيها ويعارضهم جميعاً؛ ومن ثم يوضح لنا وجهة نظره الخاصة فى ذلك. وتلكم خلاصة النظريات التى يقر بها العلماء ويدحضها الاستاذ ضياء كوك آلب:

(١) الجنس: ادعى بعض العلماء أن الشعب بمجموعه يتكون من أفراد ينتسبون الى جنس واحد تجمع بينهم روابط فسيولوجية لها علاقة بالصفات الاجتماعية.

غير أن كثيراً من علماء الفسلجة أثبتوا بالأدلة القاطعة عدم وجود أى تأثير للأوصاف الفسيولوجية على الفوارق البشرية مطلقاً. هذا وان لفظة (الجنس) اصطلاح فى الواقع يطلق على الحيوانات فيقال هذا حصان من الجنس الفلانى.

وقد أخطأ البعض بتصنيف الجنس البشرى وفقا لبعض المظاهر

الخارجية كشكل عظام الجمجمة ولون الشعر والبشرة ، وذلك لأنه لايوجد فى الوقت الحاضر شعب متصف بتلك الصفات جميعاً . فأننا اليوم نشاهد اختلافاً بيناً حتى فى صفات الأفراد المنتمين الى عائلة واحدة .

(٢) رابطة الدم : وهذه النظرية تقول ان القومية عبارة عن علاقة بين أفراد تجمعهم رابطة الدم . . . فيدعى أصحابها أن القوم (أو الشعب) بمعناه الصحيح هـــو الذى حاز أفراده صفات خاصة موجوده فى دمهم بحيث جعلتهم يمتازون عن سائر الأقوام بنقاء الدم وصفائه

ولكن هذا القول مردود من أساسه ، فالشعوب والأقوام حتى فى الأزمنة الغابرة لم تكن كما يزعمه أصحاب هـذه النظرية وذلك بسبب وقوع كثير من الحوادث التى كانت تسبب اختلاط الدماء كحالات الأسر وهروب المجرمين الى بلاد أجنبية والهجرة والازدواج الواقع بين أفراد الأمم المختلفة . . إلى غير ذلك من الوقائع التى تثبت بطلان هذه النظرية .

(٣) الوطن : فيزعم البعض أن القومية تتميز بوجود أرض مشتركة يعيش عليها أفراد يسمون بالشعب كالشعب السويسرى والشعب الايرانى .

بيد أن هذا الزعم فاسد أيضاً فان فى سويسره مثلا تسكن شعوب ثلاثة وهى الشعب الألمانى والفرنسى والايطالى ، وفى ايران يسكن الفرس والترك والكرد ؛ وليس من المعقول أن نعتبر هذه العناصر المختلفة قوماً واحداً ونطلق عليهم لفظة (الشعب) وذلك لاختلاف ألسنتهم . هذا ومن الصعوبة بمكان أن نعتبر أفراد الشعب الواحد — فيما لو كانوا يعيشون فى مواطن متعددة منتمين الى شعوب مختلفة . وبتعبير أدق لو جاز لنا أن نجزىء أمة واحدة إلى جماعات (بسبب كون أفرادها يعيشون فى بلاد معينة فانه لايصح أن نعتبر كل جماعة من هذه الجماعات شعباً يحمل اسم القطر الذى يعيش فيه .

(٤) النظرية الاسلامية : وهى تقول ان الشعب عبارة عن جماعة من الأفراد تجمعهم كلمة (الاسلام) . والواقع أن هذه اللفظة تطلق على (الأمة) لا على الشعب ، ذلك ان المسلمين فى أرجاء العالم باعتبارهم وحدة قائمة يشكلون الأمة الاسلامية . والجماعة التى تتميز بلغتها الواحدة وحضارتها المشتركة لايمكن أن تعد أمة وانما تعتبر شعباً يتجلى فيه معنى القومية . فيقول التركى مثلا انى من الأمة الاسلامية وانتمى الى الشعب التركى .

(٥) ويذهب البعض الآخر فى تفسير القومية مذهباً فردياً فيقررون لكل فرد حق الانتساب إلى أى شعب من الشعوب حسب مشيئته . فله حق اختيار الشعب الذى يرى من الأوفق أن يحيا فى ظله دون أن يمنعه من ذلك أحد .

غير أن مثل هـــذه الحرية المطلقة من الصعوبة أن نتلمسها عند فرد من الأفراد لأن النفس البشرية لاتأتلف الا اذا اتحدت فيما تشعر وتحس بحب واحد ورغبة مشتركة . ويعتقد علماء النفس فى الوقت الحاضر أن حياتنا الحسية هى الأصل وأن حياتنا الفكرية مرتبطة بها فهى اذاً حياة تبعية . وبناء على ذلك يجب أن تكون الأفكار مع الشعور على خير وفاق .

فاذا لم ترتبط أفكار الانسان بحواسه فان مثل هذا الشخص يصاب غالباً بمرض نفسانى يجعله شقياً فى الحياة مادام يعيش بعيداً عن بنى قومه . ومثل ذلك الشخص كمثل شاب يقوم بالعبادات البدنية بصورة حسية دون أن تكون أفكاره متصلة بالمبادىء الدينية فهو لذلك لايكون قادراً على موازنة نفسه

وخلافاً لذلك فان شقاء الأنسان ينقلب الى هناء ورفاه فيسعد ذلك الشقى فيما لو عاش فى أحضان قومه ، لأنه تربى وترعرع بين أناس يعطفون عليه فيميل اليهم أكثر من غيرهم . وعليه فان من العسير جداً أن يغير الانسان قوميته ويبدل أسلوب حياته لأنه ، كما قلنا ، يعيش متحسراً على حياته الماضية التى قضاها سعيداً بين أفراده ، فيبتلى بما يسمى بداء الصلة ا . (ضياء كوك آلب : أسس القومية التركية ص ١٥ — ١٩) .

وبعد أن يناقش هذه النظريات نقاشاً دقيقاً ويرد عليها نراه يوضح لنا وجهة نظره الخاصة فى تحديد معنى القومية فيستخلص المراد منها بأنها عبارة عن سمو الشعب ورقيه . والشعب فى نظره ليس بمجموعة تربط أفرادها أواصر الجنسية ، ولا هيئة سياسية أو جغرافية أو إدارية ، وإنما هى مجموعة من الأفراد تجمع بينهم روابط الدين واللغة والأدب والأخلاق المشتركة ، وبتعبير آخر اتحاد أفراد تلك الهيئة فى الحضارة الواحدة — فالقومى كما يقول القروى —